الزَّجر والعيافة والطِّيَرَة
في الشعر الجاهلي

د. أحمد عبد المنعم حالو(*)

مرَّ العرب في جاهليتهم كسائر الأمم بطور البداوة، وهذا أمر طبيعي تمرُّ به الشعوب في ارتقائها سلَّم التطور والحضارة، وكان لهم في تلك المرحلة سماتٌ وملامحُ وشمائل ميّزت حياتهم العقلية والروحية، ولعلّ أكثر ما يميّز الرؤية العربية في الجاهلية سيطرة النظرة الحسية المادية إلى الأمور، والافتقار إلى النظرة الشمولية، وبروز النظرة القاصرة التي تتجلى في ضعف التعليل ولا تتكئ إلى نظرة علمية سليمة، ولا عجب في ذلك؛ فأحكام العرب هذه نابعة من المحيط الذي يعيشون فيه، وتتحكم فيهم ظروفه القاسية، فصحراؤهم القاسية تميّزت بقسوة طبيعتها، ومناخها الحار، وندرة مظاهر الخصب والنماء إلاّ في بعض الأماكن التي توجد فيها المياه وخاصةً في أعقاب الأمطار إذ ترتدي الأرض ثوبًا أخضر قشيبًا لا يدوم طويلاً، فسرعان ما تقضي عليه الرياح الحارة الجافة وتكشف عن تربة فقيرة قاحلة لا مكان فيها للحياة.

(*) أستاذ مساعد للأدب القديم في قسم اللغة العربية بجامعة البعث.

وقد فرض هذا المناخ على العرب حياة شاقة صعبة لا تعرف الأمن والاستقرار والهدوء فكانت القبائل العربية في تنقُّل دائم طلبًا للماء والمرعى، ولمّا كان الماء قليلاً والمرعى شحيحًا نشبت النزاعات، وكثرت الأيام والوقائع، وعاش العربي عيشةً مَلأَى بالاضطراب والقلق والخوف، وفي مواجهة دائمة لأعدائه المتربصين به من جانب، والقوى الطبيعية المختلفة من جانب آخر مما جعله يشعر بضعفه وعجزه وحاجته إلى ما يخفف روعه في هذه الصحراء، ويشعره بالطمأنينة والأمان، ويفسر له العديد من الظواهر التي تعترضه في حياته ولا سيما مع غياب الدين الإلهي الذي يوضِّح الكثير من الأمور الغيبية التي يعجز الإنسان عن تفسيرها، ويكون له هاديًا وموجهًا في الملمات والنوائب(١).

وهكذا أنشأ الإنسان العربي أوهامًا وخرافات حاول أن يعلّل بها كثيرًا من الظواهر التي تتصل بحياته في الصحراء مما جعل حكمه بدائيًّا حسيًّا ضالاً وبعيدًا عن الحق والصواب، وحفلت حياته بعاداتٍ كانت له معتقدًا، ومصدرًا مهمًّا لطمأنينة نفسه وراحتها، وليس في هذا الأمر مطعنٌ أو مأخذٌ على العرب، فقد كانت سيطرة الأوهام على النّاس آنذاك سيطرة عامة لأنها تتبع للعواطف والمشاعر لا إلى العقل والتفكير، وفي ذلك يقولُ الحوفي: «إنّما تشيع الأوهام في النفوس لأنّ النّاس يتشابهون فيما يرجع إلى اللاشعور والغرائز، وإن اختلفت طبقاتهم، فهم يتشابهون في الوجدان والشهوات والمشاعر»(٢).

(١) ينظر المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام :١/ ٢٦١ وما بعدها، والعصر الجاهلي: ٨٥.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٤٣٤.

ومن هذه العادات والمعتقدات عقر الإبل على القبور، والسحر، والرقى والتمائم، وشق الرداء لتقوية الحب، وكي السليم ليصح الأجرب، وضرب الثور إذا عافت البقر(٣)، والرتم(٤)....وغير ذلك.

ويقف هذا البحث عند بعض العادات السقيمة التي سادت في الجاهلية وبقيت آثارها إلى يوم الناس هذا، وهي (الزَّجر والعيافة والطِّيَرَة) ليرى صداها في الشعر الجاهلي، ويبين تعبير الشعراء عنها وكشفهم لمفهومها ومعانيها، وأثرها في نفوسهم وحياتهم من جهة، وفي المجتمع الجاهلي من جهة أخرى.

أوّلاً : وقفة عند المصطلح :

وقبل ذلك لا بد من الوقوف على المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذه الألفاظ، مشيرين بالحديث عن معناها إلى الملامح المشتركة فيما بينها، ومبينين الفروق التي تميّز كلاً منها من الآخر.

١ - الزَّجر:

الزَّجر في الأصل: المنع والنهي والانتهار، وزجرتُ البعير حتى ثار ومضى، وزجرتُ فلانًا عن السوء فانزجر، وهو كالردع للإنسان، وأمّا للبعير فهو

(٣) كان العرب إذا أوردوا البقر فلم تشرب لكدر الماء، أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء فتتبعه البقر، وقيل إنّهم زعموا أن الجنّ تصد البقر عن الماء، وأنّ الشيطان يركب قرني الثور، فكأنّهم بضرب الثور يطردون الجن؛ ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٥٠٣-٥٠٥.

(٤) كان الرجل في الجاهلية إذا عزم على سفر يعقد خيطًا في غصن شجرة أو ساقها، فإذا عاد ووجد الخيط على حاله علم أن زوجه حفظت غيبته، وإن لم يجده قال إنّها خانته، وهذا العقد يسمّى الرّتم والرّتيمة؛ ينظر أساس البلاغة والقاموس المحيط ولسان العرب: (رتم).

كالحثّ بلفظ يكون زجرًا له[٥]:

ومن المجاز: الزّجر بمعنى العيافة، وهو يزجر الطير يعيفها، وأصله أن يرمي الطّائرَ بحصاة ويصيح، فإن ولاه في طيرانه ميامنة تفاءل به، أو مياسرة تطيَّر[٦].

ولم يكن الزجر مقتصرًا على الطير وإنّما كانوا يزجرون الوحش أيضًا، فما تيامن منها سمّوه سانحًا، وما تياسر سمّوه بارحًا، نقل ابن منظور عن الليثِ قولَهُ:«الزّجر أن تزجر طائرًا أو ظبيًا سانحًا أو بارحًا فتطَّيّر منه»[٧]، ونقل عن الزجاج قولَهُ: «والزّجر للطير وغيرها التيمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها»[٨].

٢- العيافة:

للعيافة معنيان؛ الأول كراهية الطعام والشراب، وعاف الرجل الطعام أو الشراب يعافه عيافًا أي كرهه فلم يشربه[٩]. والثاني حَوَمان الطائر في السماء، وهو ما يعنينا هنا، قال الأزهري: «عاف الطير على الماء وغيره، يعيف عيفًا إذا حام عليه»[١٠] وعاف الطائر: حام في السماء[١١]. وقال ابن منظور: «عافت الطير إذا كانت تحوم على الماء وعلى الجيف تعيف عَيْفًا وتتردّد ولا تمضي تريد الوقوع فهي عائفة»[١٢].

(٥) الصحاح ولسان العرب (زجر).

(٦) تاج العروس: (زجر).

(٧) لسان العرب: (زجر).

(٨) المصدر السابق: (زجر).

(٩) لسان العرب وتاج العروس: (عيف).

(١٠) تهذيب اللغة: ٣/ ١٤٧.

(١١) المخصص: ٢/ ٣٢٩.

(١٢) لسان العرب: (عيف).

ومن هنا اشتق الجاهليون مصطلح العيافة الذي يختص بالطير وحركاتها، وسمّوا من يتكهن بهذا الضرب عائفًا، وأصبحت العيافة تعني: الزجر، وعِفتُ الطير زجرتها؛ قال ابن منظور: عاف الطائرَ وغيرَه من السوانح يعيفه عيافةً زجره، وهو أن يعتبر بأسمائها ومساقطها وأصواتها(١٣).

فالعيافة والزجر إذن يحملان معنىً واحدًا، وهو الاعتبار بأسماء الطير وممرّها ومساقطها وأصواتها والتفاؤل أو التشاؤم بذلك.

٣ - الطِّيَرَة:

قال الخليل: «الطِّيَرَة: مصدرُ قولك: اطَّيَّرْتُ أي تطيَّرْتُ، والطِّيْرَة لغةٌ، ولم أسمع في مصادر افتعل على فِعْلة غير الطِّيرة والخِيرة كقولك: اخْتَرْتُهُ خِيرةً، نادرتان»(١٤).

والطِّيَرَة والتَّطيُّر بمعنى واحد، ومعناهما ما يُتَشاءَمُ به من الفأل الرديء(١٥).

وذكر ابن رشيق القيرواني أنّ أصل الطيرة من أحد شيئين فقال: «والطِّيَرَة مشتقة من أحد شيئين: إمّا من الطيران، كأنّ الذي يرى ما يكره أو يسمع يطير، كما قال بعضهم:

عوى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عوى وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

وإمّا من الطَّيْرِ، وهو الأصل والمختار من الوجهين، هكذا ذكر الزجاجي، وكانت العرب تزجر الطير والوحش؛ فمن قال بالقول الأول احتجّ بأنَّ الوحش يُطَيَّرُ بها، وزُجرت مع الطير، ومن قال بالقول الثاني قالَ: إنّما الأصل في الطير، ثم صار في

(١٣) المصدر السابق: (عيف).

(١٤) العين: ٧/ ٤٤٧.

(١٥) الصحاح ولسان العرب وتاج العروس: (طير).

الوحش، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعًا»[١٦].

وبعد الوقوف على معاني هذه الألفاظ يتبين أن العيافة والزجر يحملان معنىً واحدًا، وإنّما هناك بعض الفروق بينهما وبين الطِّيَرة؛ فالعيافة يكون منها التفاؤل والتشاؤم، وأمّا الطيرة فلا يراد بها إلا التشاؤم. والعيافة تقصد حين يزجر الإنسان الطير فينشأ عن ذلك تفاؤل أو تشاؤم، أمّا الطِّيرة فقد تكون مصادفة من غير أن يعمد إليها الإنسان وربما استعمال الزجر والطيرة بمعنى واحد وأريد بها جميعًا ما كانت العرب تفعله إذا ما أرادوا فعل أمر أو تركه من زجر الطير حتى يطير، فإن طار يمينًا كان له حكم، وإن طار أمامًا كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم، وأكثر ما عوّلوا عليه من ذلك الغراب، ثمَّ تعدُّوه إلى غير الطير من الحيوان ثمّ جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك[١٧]، وربما تطيّروا إذا رأوا أيّ مظهر يدعو إلى التشاؤم حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب[١٨] أو الأبتر[١٩] زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فكان زجر الطير هو الأصل ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كلِّ شيء[٢٠].

(١٦) العمدة ٢/ ١٠٠٧.

(١٧) ينظر صبح الأعشى: ٣/ ٤٥٦.

(١٨) الأعضب: مكسور القرن.

(١٩) الأبتر: مقطوع الذنب.

(٢٠) ينظر الحيوان: ٣/ ٤٣٨.

ثانيًا – اختلاف العرب في الزَّجر والطِّيَرَة:

شاع زجر الطير والوحش وإثارتها عند العرب، وكان للتطير شأن كبير في حياتهم، وكانوا أعلم النّاس بهذا العلم يعتمدونه في حركاتهم وسكناتهم، ويعولون عليه في أفعالهم، ولكنّهم اختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤمهم، ولم يكونوا على مذهب واحد في ذلك، فمنهم من يتشاءم بالبارح، ويتبارك بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى اختلافهم في معنى السانح والبارح؛ فقد ذكر أبو علي القالي أنّ أبا عبيدة قال: «سأل يونس رؤبة وأنا شاهد عن السَّانح والبارح، فقال: السّانح ما ولاك ميامنه، والسَّانح ما ولاك مياسره»[٢١]، وأضاف: «وقال غيره: السَّانح: ما مرّ عن يمينك، والبارح: ما مرّ عن يسارك. وأكثر العرب تتبرّك بالسانح، وتتشاءم بالبارح، وفيهم قوم يتبركون بالبارح، ويتشاءمون بالسانح»[٢٢].

وقال ابن الأثير: «السَّانح: ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمّن به لأنّه أمكن للرّمي والصيد. والبارح: ما مرَّ من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطيّر به لأنّه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف»[٢٣].

وذكر ابن دريد أنّ أهل نجد يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم في ذلك أهل العالية فيتشاءمون بالسَّانح ويتيمنون بالبارح، وأنّ السانح هو الذي يلقاك وميامنه عن ميامنك، والبارح الذي يلقاك وشمائله عن شمائلك.[٢٤]

---

(٢١) الأمالي ٢/ ٢٤٠.

(٢٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٤٠.

(٢٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: (سنح) وينظر اللسان والتاج: (سنح).

(٢٤) جمهرة اللغة: ١/ ٢٧٢.

ونقل ابن رشيق أيضًا عن أبي جعفر النحاس قولَه: «السنيح عند أهل الحجاز: ما أتى عن اليمين إلى اليسار، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين، وهم يتشاءمون بالسانح، ويتيمنون بالبارح، وأهل نجد بالضد من ذلك، والسانح عندهم هو البارح عند أهل الحجاز»(٢٥).

ثالثًا – من اشتهر من العرب بالزَّجر والعيافة:

اشتهرت قبيلتان من العرب بالعيافة، وهما قبيلة لِهْب، وهم من بني ثُمالَةَ من الأزد وهم أزجر قوم، وقبيلة أسد.

وقد رويت قصص كثيرة عن براعتهما في العيافة، ولعلّ أبرز ما قيل عن قبيلة لهب في هذا المجال ما ذكر عن نبوءة رجل عائف منهم بشأن رسول الله ﷺ، فكان هذا العائف إذا ما قَدِم مكّةَ أَتَاهُ رِجالُ قريش بِغلْمانهم ينظرُ إلَيهم ويعْتافُ لَهم فيهم فَأتى بِهِ أبو طالب وهو غُلام مع من يأتيه فنظر إلى رسولِ اللهّ ﷺ، ثمّ شغلَه عنه شيءٌ، فلَمّا فرغ قال: الغلام! عليّ بِهِ؛ فلمّا رأى أبو طالب حرصه علَيه غيّبَهُ عنهُ، فَجعل يقول: ويْلكم! رُدّوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفًا، فواللهّ ليكوننّ لَه شأنٌ(٢٦).

ومن ذلك ما ذكر عن اللّهبي العائف من بني لهب بن أحجن بن كعب بن الحارث الذي زجر حين وقعت الحصاة بصلعة عمر ﷺ فأدمته، وذلك في الحجّ، فقال: أشعر أمير المؤمنين، واللهّ لا يحجّ بعد هذا العام؛ فكان كذلك(٢٧).

(٢٥) العمدة: ٢/ ١٠١٢.

(٢٦) سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٩.

(٢٧) الروض الأنف: ١/ ٣١١.

ومما ذكر عن شهرة بني أسد بالعيافة أنّ النّاس قصدوها للأخذ منها، حتى إنّ قومًا من الجن تذاكروا عيافتهم فأتوهم، فقالوا: ضَلَّت لنا ناقةٌ، فلو أرسلتم معنا من يَعِيف فقالوا لغُلَيِّم منهم: انطَلِقْ معهم؛ فاستردَفَه أحدُهم ثم ساروا فلقِيَتهم عُقابٌ كاسِرَةٌ أحد جناحَيْها، فاقشعرّ الغلام وبكى فقالوا ما لَكَ ؟ فقال: كسَرَتْ جَناحًا، ورَفَعَتْ جَناحًا، وحَلَفَتْ باللهّ صُراحًا، ما أنت بإنسي ولا تبغي لِقاحًا[٢٨].

وقد اشتهر بالعيافة أشخاص بعينهم منهم عرّاف اليمامة، والأبلق الأسدي، وحسل بن عامر بن عميرة الهمداني، وجابر بن عمرو المازني، وجندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، ومرّة الأسدي وغيرهم، فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به، ويتصرفون في حال الأمن والخوف، والسعة والضيق، والحرب والسلم، فإن نجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه وداموا عليه، وإن عطبوا فيه تركوه وذمّوه[٢٩].

رابعًا – أهمية العيافة عند العرب:

لم تكن العيافة عند العرب كلها تخيلات وأوهامًا وخرافات، بل كان بعضها حدسًا مبنيًّا على أحداث واقعية حقيقية، كما يتبين في قصة حذام بنت الرّيان التي استدلت بمراقبة القطا على قدوم عاطس بن خلاج وقومه لغزو قومها، فحثّتهم على الارتحال والسير، وقالت: «لو تُرِكَ القَطَا ليلاً لَنَامَا» وبَنَت معرفتها هذه على علمها الدقيق بأحوال الطير، فلو تُرك القطا ما طار تلك الساعة من الليل، فلم يلتفت قومها إلى قولها، فقام دَيْسَمُ بن طارق وقَال بصوت عالٍ:

إذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا فَإنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

(٢٨) لسان العرب: (عيف).

(٢٩) ينظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣/ ٣١٣ وما بعدها.

فتحرك القوم ولجؤوا إلى وادٍ قريب وامتنعوا منهم(٣٠).

وكانت العيافة في بعض القبائل الجاهلية عنصرًا أساسيًّا في حياتهم، وكان للعائف مكانته وأهميته عندهم، كما يذكر عن قبيلة هَمْدان التي لم تكن تزوّج إلا شاعرًا أو عائفًا أو عالمًا بعيون الماء(٣١)، وهذا يؤكد أنّ هذه القبيلة كانت تربط بين الزواج وبين حاجات القبيلة في العصر الجاهلي، فهي تحتاج إلى شاعر يكون لسانها بين القبائل، وإلى عائف يتنبأ بأمورها، ويتوقع ما سوف يجري معها، وكذلك إلى عالم بعيون الماء نظرًا لطلبهم الحثيث للماء في صحرائهم نادرة المطر.

خامسًا – الزجر والعيافة والطِّيرة في الشعر الجاهلي:

لا يمكننا أن نتوقع أنّ هناك بابًا خاصًّا في الشعر الجاهلي يقف على معتقدات العرب وأفكارهم التي يؤمنون بها، ويعرِّفنا عاداتهم وتقاليدهم التي تبيّن طبيعة حياتهم والأسس التي قامت عليها إلى مجيء الإسلام وتغييره للعقلية العربية وإعطائها أوجهًا إنسانية وفكرية جديدة، إلا أنّنا نجد هذه الأمور مبثوثة في موضوعات الشعر المختلفة، فقد تكون في الفخر أو المدح أو الهجاء أو الرثاء أو الغزل وغيرها.

ولا نحسب أنّ الشعراء الجاهليين جميعهم قد بثوا في شعرهم معتقداتهم، فقد نجد مثل هذا عند شاعر ما، في حين يخلو شعر شعراء آخرين من ذلك، ولعلّ سبب ذلك ضياع كثير من الشعر الجاهلي في مسيرته حتى وصل إلى عصر التدوين، ولا ننسى قول أبي عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب

(٣٠) مجمع الأمثال: ٢/ ١٧٤.

(٣١) المصدر السابق: ٢/ ٢١٧.

إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير»[٣٢].

ومع ذلك نجد مادة وفيرة في الشعر الجاهلي تبين أهم ما تطيّر به العرب، وتوضّح موقف الشعراء من العيافة والطيرة، مما يعكس موقف المجتمع الجاهلي عامة لأنه جزء لا ينفصل عنه.

وقد كان للغراب النصيب الأوفى في أشعارهم، فكان رمزًا للشؤم والفراق، ولعلّ سبب ذلك يعود إلى لونه وعمله واسمه، ويؤكد هذا ما ذكره الجاحظ عنه، فقد ذكر أنّ العرب تتطيّر منه إن كان أسود لسواده، ولاختلاف لونه إن كان أبقع، كما قالوا: (غراب) لاغترابه وغربته، و(غراب البين) لأنّه لا يوجد في موضع خيامهم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم؛ كما سمّوه (ابن داية) لأنّه ينقّب عن الدَّبَر حتى يبلغ إلى دَأَيَاتِ العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلب وفقار الظهر، وسمّوه (حاتمًا) إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[٣٣].

وهو عند العرب مخادع خبيث لا عهد له، فقد ذكروا في قصصهم أنّ الديك كان نديمًا له، وأنّهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئًا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك فخاس به، فبقي محبوسًا[٣٤].

وأنّ نوحًا عليه السّلام حين بقي في اللّجة أيامًا أرسله فوقع على جيفة ولم يرجع، وفي غدره قال أميّة بن أبي الصّلت[٣٥]:

---

(٣٢) طبقات فحول الشعراء: ٢٢.

(٣٣) ينظر الحيوان: ٣/ ٤٣٩. والدَّبر: جمع الدَّبَرَة: وهي قرحة الدابة والبعير. والدَّأية: فقار الكاهل في مجتمع ما بين الكتفين من كاهل البعير خاصة.

(٣٤) المصدر السابق: ٢/ ٣٢٠. وخاسَ به: غدر به.

(٣٥) ديوانه: ٣٣٨، وينظر الحيوان: ٢/ ٣٢١.

بآيــةِ قــامَ يَنْطِــقُ كــلُّ شيءٍ وخـان أمانـة الـدِّيكِ الغـرابُ

والعامة تضرب به المثل وتقول: ما هو إلا غراب نوح(٣٦).

ولذلك نرى النابغة يتطيّر منه ويجد في نعيبه ولونه الأسود نذير شؤم وفراق للأحبة(٣٧):

زعـمَ البـوارحُ أنّ رحلتنـا غـدًا وبذاك تَنْعابُ الغرابِ الأسـودِ

وهذا ما أوحى به صوتُه لزهير بن أبي سُلمى، فَقَدْ فَقَدَ الأمل بلقاء الأحبة، وعلم أنّ فراقهم أمرٌ مؤكد عندما سمع نعيق غراب البين(٣٨):

فَعَدِّ عمّا ترى ، إذا فـات مطلبُـه أمسى بذاك غرابُ البينِ قد نعقا

وها هو ذا أحد الشعراء الجاهليين يتمنى لو أنّه لم يسمع نعيبه، لما يحمله هذا النعيب من إنذار بالبين والفراق(٣٩):

نَعَـبَ الغـرابُ وليتـه لم ينعَــب بالبين من سلمى وأمِّ الحَوْشَبِ

ويرى حسان بن ثابت في صوته دعاء صريحًا فصيحًا بفرقة الأحباب(٤٠):

وَأَسْمَعَكَ الدّاعي الفَصِيحُ بفُرْقَةٍ وقدْ جَنَحَتْ شمسُ النّهارِ لِتَغْرُبا

وَبيّنَ في صَوْتِ الغُـرَابِ اغـتِرَابُهُم عَـشِيّةَ أَوْفَى غُـصْنَ بـانٍ فَطَرّبَـا

وَفي الطّيرِ بالعَلْيَاءِ إذ عَرَضَـتْ لَنَـا وَمَـا الطّـيرُ إلاّ أن تَمُـرّ وَتَنْعَبَـا

(٣٦) مجمع الأمثال:٢/ ٦٧.

(٣٧) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩.

(٣٨) ديوان زهير بن أبي سُلمى: ٦٩.

(٣٩) الشعر والشعراء: ١/ ١٢٦.

(٤٠) ديوان حسان بن ثابت: ١٩.

في حين نجد التَّطير منه أشد عند عنترة إذ يقول(٤١):

ظعـنَ الـذينَ فـراقهم أتوقَّـعُ وجـرى بينهُمُ الغُـرابُ الأَبْقـعُ

حَرِقُ الجناح كـأنَّ لحيي رأسه جَلَـمَانُ بالأَخْبـار هَـشٌّ مُولـعُ

إنَّ الـذينَ نَعَبْـتَ لي بفِـراقهمْ هُمْ أسْهرُوا لَيْلي التّمامَ فأَوْجعوا

وقد تطيّر منه لأمور عدة، لأنّه غراب، ولأنّه أبقع، وحَرِقُ الجناح، كما جعل لِحْيَي رأسه جلمين، والجلم يقطع، وجعله بالأخبار هشًّا مولعًا، وكان نعيبه عنده كالخبر المفهوم(٤٢).

وهذا يؤكد قول الجاحظ عن العرب: «ولا شيء مما يتشاءمون به إلاّ والغراب عندهم أنكد منه، يرون أنّ صياحه أكثر أخبارًا، وأنّ الزّجر فيه أعمّ»(٤٣).

وكانوا لشدة بغضهم له وتشاؤمهم منه كلما ذكروا شيئًا مما يتطيّرون منه ذكروا الغراب معه، فها هو ذا الأعشى يذكر الغراب وشؤمه مع التيس(٤٤):

ما تَعِيفُ اليومَ في الطَّيْرِ الـرَّوَحْ مِنْ غـرابِ البَيْنِ أَوْ تـيسٍ بَـرَحْ

وهذا ما نجده عند عدي بن زيد العبادي في قوله(٤٥):

---

(٤١) ديوان عنترة: ٢٦٣.

(٤٢) ينظر الحيوان: ٣/ ٤٤٢. والجَلَم: الذي يجزُّ به الشعر والصوف، وطائر حرق الجناح: إذا نَسل ريشه، كأنّه يحترق فيسقط. والجَلَمان: شفرتاه، وليل التِّمام: الشديد الطول.

(٤٣) المصدر السابق: ٢/ ٣١٦.

(٤٤) ديوان الأعشى: ٢٧٣.

(٤٥) الحيوان ٣/ ٤٣٧، والصرد: طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير، ومن أسمائه أيضًا الأخيل والأخطب. القاموس المحيط: (وقى)، والعمدة: ٢/ ١٠٠٩.

دعا صُرَدٌ يومًا على غصْنِ شوْحَطٍ وصاح بذاتِ البيْنِ منها غرابُها

فقلت: أتصريدٌ وشحطٌ وغرْبةٌ فهذا لعمري نأيُها واغترابُها

ويبدو واضحًا أنّ عديًّا هنا لم يتشاءم من صوت الغراب والصرد فحسب، وإنّما تشاءم من اسميهما واسم شجرة الشوحط معهما، فالعرب يتطيرون من أشياء كثيرة من جهة التسمية(٤٦)، فالصرد من التصريد وهو البرد، والشوحط من الشحط وهو البعد، والغراب من الغربة.

فالجاهليون استمدوا من اللغة عناصر أسهمت في تكوين مفهوم العيافة والزجر، وكانوا يقيسون النظائر اللغوية بالنظائر الحياتية، ويقارنون بين الألفاظ المتشابهة والمتباينة في ضوء حدسهم اللغوي، وهذا ما يتبين من قول سوَّار بن المضرّب متطيّرًا من شجرتي الغرب والبان(٤٧):

تغنّى الطائران ببينِ ليلى على غصنين من غَرْبٍ وبانِ

فكان البانُ أن بانتْ سُليمى وفي الغَرْب اغترابٌ غيرُ دانِ

فاشتق الاغتراب من الغرب، والبينونة من البان.

ويتضح كذلك في قول جران العود(٤٨):

جرى يوم رُحْنا بالجمال نُزِفُّها عُقابٌ وشَحَّاج من البين يَبْرحُ

فأمَّا العُقاب فهي منها عقوبة وأمّا الغُراب فالغريب المطوَّحُ

(٤٦) العمدة: ٢/ ١٠١٢.

٤٧) الحيوان: ٣/ ٤٤٠.

(٤٨) المصدر السابق: ٣/ ٤٤١، والغريب المطوّح: البعيد.

فقد اشتق من العقاب العقوبة، ومن الغراب الغريب.

ولم يقف تشاؤم العرب على ما ذكر من طير وحيوان ونبات فقد تشاءموا بطيور أخرى كالجراد والبازي والرخم والوطواط والبوم وطيور الليل عامة، وبحيوانات أخرى كالثور الأعضب والأبتر والقعيدة والنطيح(٤٩)، وتشاءموا من الإبل أيضًا لأنّها تحمل الظعائن وتشتت الخلان وتفرقهم، حتى إنّ عوفًا الرّاهب(٥٠) ذمّ النّاس الذين يتشاءمون من الغراب، ورأى أنّ التشاؤم من الإبل أولى(٥١):

غلطَ الذينَ رأيتهمْ بجهالةٍ يَلْحَوْنَ كلُّهمُ غُرابًا يَنْعَقُ

ما الذَّنبُ إلاَّ للأباعرِ إنَّها مما يُشِتُّ جميعُهمْ ويفرِّقُ

ويدخل في الطيرة أيضًا ما قد يصدر عن الإنسان والحيوان من أفعال وحركات كالتثاؤب والعطاس، وها هو ذا امرؤ القيس يتشاءم بالعطاس قائلاً(٥٢):

وقد أغتدي قبل العُطَاسِ بهيكلٍ شديدِ مَشَكِّ الجنْب فَعْمِ المُنَطَّقِ

فكان الشاعر يذهب للصيد قبل أن يستيقظ النّاس من نومهم ويسمع عطاسهم فيتشاءم بذلك.

---

(٤٩) العمدة: ٢/ ١٠٠٨-١٠٠٩، والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦/ ٧٩٧. والأعضب: مكسور القرن، والأبتر: مقطوع الذنب، والقعيدة: ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر، والنطيح: ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش.

(٥٠) كاهن وشاعر جاهلي، ينظر ترجمته في معجم الشعراء: ٢٧٦.

(٥١) الزهرة: ١/ ٣٤٩.

(٥٢) ديوان امرئ القيس: ١٧٢. وقيل معنى العطاس: انفجار الصبح، اللسان (عطس). وشديد مشكّ الجنب: شديد مغرز الجنب في الصلب، وفعم المنطّق: ممتلئ الجوف.

ولكن لم يكن النّاس جميعهم في العصر الجاهلي يؤمنون بالطيرة، وكان بعضهم يرى ذلك وهمًا لا يستند على حجة أو منطق أو عقل، ولذلك نرى أناسًا منهم أنكروها ولم يحفلوا بها، وقد ندّد كثيرٌ من الشعراء الجاهليين بها، ورأوا أنّها تردُّ النّاس عن وجهتهم وتدعوهم إلى التراجع والإحجام، ومن هؤلاء الشعراء خُزَزُ بن لَوْذان السدوسي الذي يقول(٥٣):

لا يمنعنّك من بغا ء الخير تعقيد التمائمِ
ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتمِ
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائمِ
وكذاك لا خير ولا شرّ على أحدٍ بدائمِ

وينصح الحارث بن حِلِّزة اليشكري المزمعَ على الرحلة ألا يثنيه زاجر الطير ولا يعوقه الغراب ولا الحيوان مكسور القرن الذي يأتيه من خلفه(٥٤):

يا أيها المزمِعُ ثمَّ انثنى لا يثْنِكَ الحازِي ولا الشَّاحِجُ
ولا قعيدٌ أعضبٌ قرْنُهُ هاجَ له من مَرْبَعٍ هائِجُ

وزبّان بن سيار الفزاري كان ينكر الطيرة أيضًا ويدفعها، فقد خرج يومًا مع النابغة الذبياني للغزو، وكان النابغة من المتطيرين، فبينما هما يريدان الرحلة

(٥٣) معجم الشعراء:١٠٢. والواقي: الصرد، والحاتم: الغراب.

(٥٤) الحيوان ٣/ ٤٥٠، ولم أجدها في ديوان الحارث. والحازي: زاجر الطير. والشاحج: الغراب. والقعيد: الذي يأتي من الخلف، والأعضب: مكسور القرن، وكانت العرب تتشاءم منهما.

سقطت جرادة على ثوب النابغة فتطيّر وعاد، وأمّا زبّان فمضى وعاد من تلك الغزوة سالمًا غانمًا، فأنشأ يذكر شأن النابغة، ويبين أنّ الطير لا أثر لها في حياة الإنسان، وأنّ ما يتحقق منها ليس إلا ضربًا من المصادفة(٥٥):

تخــبَّرَ طــيْرَهُ فيهــا زيــادٌ لتخْــبِرَه ومــا فيهــا خبــيرُ
أقــام كــأنَّ لقــمان بــن عــادٍ أشــار لــه بحكْمتــه مُــشيرُ
تعلَّــمْ أنّــه لا طــير إلاّ عــلى متطــيِّرٍ وهــو الثُّبُــورُ
بــلى شيءٌ يوافــق بعــض شيءٍ أحايينــا وباطلُــهُ كثــيرُ

وهذا ما يؤكده طرفة بن العبد الذي رأى أنّ العواطس والظباء والعقاب – وهي ممّا يتشاءم منه العرب – لا تؤثر في رزق العبد، ولا يدفع التشاؤم منها ما يمكن أن يصيبه(٥٦):

لعمري لقد مرَّتْ عواطِسُ جمّةٌ ومرَّ قبيل الصّبحِ ظبيٌ مُصَمَّعُ
وعجـزاءَ دفّـتْ بالجنـاح كأنّهـا مع الصبح شيخٌ في بجاد مقنَّعُ
فلـن تمنعـي رِزقًـا لعبـد ينالُـه وهل يَعْدُوَنْ بؤساكِ مـا يتوقَّـعُ

وعوف بن عطية بن الخرع التيمي لا يعبأ بالطير أيضًا، وقومه كذلك إذ يقصدون البلاد كما يريدون غير متوجسين من الطير شرًّا أينما اتجهت وطارت، ولا فرق عندهم بين السّانح منها والبارح(٥٧):

(٥٥) الحيوان: ٣/ ٤٤٧. والثبور: الهلاك والخسران.

(٥٦) ديوان طرفة: ١٧٥. والعواطس: جمع عاطس، وكان العرب يتطيرون من العطاس، والمصمّع: صغير الأذنين، وقيل هو الأقرن. والعجزاء: العقاب، وجعلها عجزاء لبياض عجزها، ودفّت بجناحها: ضربت به.

(٥٧) المفضليات: ٤١٥.

نَــؤُمُّ الــبِلاَدَ لِحُــبِّ اللِّقــاءِ ولا نَتَّقِـي طـائِرًا حيـثُ طَـارَا
سَــنَيحًا ولا جارِيًــا بارِحًــا عـلى كـلِّ حـالٍ نُلاقِـى اليَسَارَا

ولم يقتصر علقمة بن عبدة التميميّ على إنكار التطير بل رأى أنّه شؤم على من يؤمن به؛ لأنّه يمنعه عن غايته وتحقيق مراده(٥٨):

ومن تعرَّضَ للغِربانِ يَزجُرُها عـلى سـلامته لا بـدَّ مـشؤومُ

خاتمة

وبعد، فهذه تطوافة سريعة، ولمحة موجزة عن الزجر والعيافة والطيرة في الشعر الجاهلي، وقد بدا جليًّا كيف استطاع هؤلاء الشعراء أن ينقلوا إلينا صورة صادقة حيّة عن هذا المعتقد الذي كان له كبير الأثر في العصر الجاهلي، فمن آمن به وصدّقه ضمنه شعرَه الذي كان ولا يزال ناقلاً أمينًا لأفكار الشعراء ورؤاهم وتطلعاتهم وعواطفهم وأحاسيسهم، ومن لم يعتقد به ودحضه لم يألُ جهدًا في بيان ذلك في شعره أيضًا.

وقد جاء الإسلام ليبين صحة ما ذهب إليه هؤلاء الذين رفضوا العيافة والطيرة، دافعًا كلَّ العادات السقيمة والمعتقدات المريضة التي لا دور للعقل والفكر فيها، فهو الدين القويم الذي رد الجهل والأوهام والخرافات وأقرَّ عقيدة التوحيد، وبيَّن أنّ الله وحده عالم الغيب وبيده وحدَه قضاء حاجات النّاس ومتطلباتهم؛ فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥](٥٩).

وبيّن ﷻ أنّ الطيرة من صنيع أعداء الرّسل، وذلك قوله تعالى عن قوم

(٥٨) ديوان علقمة الفحل:٦٧.
(٥٩) وينظر الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٢٦.

فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١](٦٠)

فقد كان آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة من خصب وسعة وعافية قالوا: نحن جديرون بها، وإن تصبهم سيئة من بلاء وقحط يَطَّيّروا بموسى ومن معه فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا شؤمهم، وإنّما الشؤم بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

وجاءت السنة الشريفة أيضًا بنفي الطيرة وتحريمها، ودعا رسول الله ﷺ لإبدالها بالفأل الحسن فقال: «لا طيرة، وخيرها الفأل» قالوا:وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»(٦١). وقال ﷺأيضًا «لا عدوى ولا هامة ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح»(٦٢).

وهكذا كان الإسلام يحث على التفاؤل الذي يقوي العزيمة، ويحضُّ على العمل ويدعو الإنسان إلى التقدم، في حين تكسر الطيرة نيته وتثنيها، وتصده عن وجهته، فلا يحقق مرامه وأهدافه بسبب خرافات وأوهام لا يجوز لعاقل فَطِنٍ أن يعتقد بها.

المصادر والمراجع

١- **أساس البلاغة**: للزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت١٩٨٢م.

٢- **الأمالي**: لأبي علي القالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت١٩٨٠م.

٣- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**: للآلوسي، منشورات دار الشرق العربي، لبنان.

٤- **تاج العروس**: للزبيدي، مطابع حكومة الكويت١٩٦٥م وما بعدها.

٥- **تهذيب اللغة**: لأبي منصور الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت٢٠٠١م.

٦- **الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م.

٧- **جمهرة اللغة**: لابن دريد، تحقيق د. رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧م.

(٦٠) وينظر الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٦٤.

(٦١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٧١.

(٦٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٤٦.

٨- **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**: د.أحمد الحوفي، دار القلم، بيروت.
٩- **الحيوان**: للجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢ مطبعة البابي الحلبي مصر دون تاريخ.
١٠- **ديوان الأعشى الكبير**: شرح وتعليق د.محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر، بيروت.
١١- **ديوان امرئ القيس**: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
١٢- **ديوان أمية بن أبي الصّلت**: صنعة د.عبد الحفيظ السطلي، ط٣، المطبعة التعاونية، دمشق.
١٣- **ديوان الحارث بن حلِّزة اليشكري**: إعداد وتقديم: طلال حرب ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٦م.
١٤- **ديوان طرفة بن العبد**: شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م.
١٥- **ديوان عنترة بن شداد**: تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي دمشق.
١٦- **ديوان علقمة الفحل**: تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط١، حلب١٩٦٩م.
١٧- **ديوان النابغة الذبياني**: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.
١٨- **الزهرة**: لأبي بكر الأصبهاني، تحقيق د.إبراهيم السامرائي، ط٢، مكتبة المنار، الأردن ١٩٨٥م.
١٩- **شرح ديوان حسان بن ثابت**: تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية، مصر١٩٢٩م.
٢٠- **الشعر والشعراء**: لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.
٢١- **شعر زهير بن أبي سلمى**: صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق د.فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م.
٢٢- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: لأحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٩م.
٢٣- **صحيح البخاري**، تحقيق د.مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق١٩٩٠م.
٢٤- **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥- **العصر الجاهلي**: د.شوقي ضيف، ط٥، دار المعارف، مصر.
٢٦- **العمدة** : لابن رشيق، تحقيق د.محمد قرقزان، ط٢، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٩٤م.
٢٧- **مجمع الأمثال**: لأحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت.
٢٨- **معجم الشعراء**: لمحمد بن عمران المرزباني، تهذيب د.كرنكو، ط٢، دار الكتب العلمية ١٩٨٢م.
٢٩- **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: د.جواد علي، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٨٠م.
٣٠- **المفضليات**: للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.